

Arabe
Mention d'honneur – Mme Sawsan TARAIF

البصمات اللفظية

منذ أمدٍ ليس ببعيد صُدمت في نفسي بأمرٍ شديد، إذ اكتشفت أنني أكثر استخدام لفظة "الكثرة" دون كلل، أكثر مما ينبغي لأي امرئ أن يفعل. ولو تعيّن علي حسبانها لقلت إنني أتلفظ بها خمس مرات في اليوم والليل، زد على ذلك أو انقص منه قليلاً. ولست أقول ذلك مزهواً أو فخوراً. فليتبني كنت من صنف القائلين "نسخة" من الشيء أو "إصداراً" أو بكل بساطة "عدداً"، بدلاً من التشدد بتلك الكثرة تارة تلو الأخرى. لكنني وأسفاه لست من تلك الأشباه. زد على ذلك أنني وقعت على داء "الكثرة" العضال باستفزاز لا يخطر على بال. فلتتو كنت قد تسلّمت وظيفة جديدة عندما تناهى إلى سمعي، بعد أسابيع معدودة، ثلاثة من زملاء العمل الذين أتردد عليهم مراراً، يستخدمون لفظة "الكثرة" على حدّة وتزرى. وعندما تلفظت بها الثالثة، وهي ممن كنت أعرف قبل استلام وظيفتي المحدّثة، استوقفته وسط الجملة مستفسراً "أقلتِ كثرةً للتو أم خاني السمع؟ لست أدري لمّ يستخدم هذه الكلمة هنا كلُّ الجمع؟". "فوقع رُدّها على رأسي كالمعجم المرقوم حين قذفتني بمجمها مستنكرة" عليك أن تبتهج، فهي من كلماتك المأثورة."

وبعد مدّة من الإنكار وبعض تجاذبات القيل والقال، قفلت راجعاً إلى منزلي في آخر النهار مبادراً زوجتي بالسؤال: "ألاحظت تكرار أي لفظ غريب في مقالي حتى صار لصيقاً بشخصي وحالي؟".

فكان رُدّها في التوّ، دون أدنى لعنمة أو سهو "أتقصد لفظاً مثل كثرة؟"، قبل أن تغمرني كالسيل العارم "تكثر أيضاً من استخدام وصف الجناح، أجل وكذلك المهترئ، وتحدث طيلة الوقت عما قطع فلان من بون في أحد أموره."

واسترسلت دون انقطاع ليتبين أنّ لي ميلاً إلى ما عفا عليه الدهر وصلته قرى بابن بجلته.

وعندما عدت إلى العمل في اليوم التالي، كنت قد تقبلت على مضض أن لي فرطاً في التنطع بحفنة من الألفاظ البالية وأن كل من يحيط بي متفطرٌ لحالي. ولكني لاحظت أيضاً في الأثر أن خطابي لرفقة المكتب قد تغير. ففي حين لم أفقد مهارتي في تطعيم عبارة بوصف "عفا عليه الدهر" أو زجّ مسكوكة" ما قطع فيها من بون" في ثنايا الكلام، فقد توقفت بجمّة واعتزام عن استخدام الكثرة. فتلك الكلمة باتت من غرسي وإن كنت بذلك جاهلاً حتى أمسي. ثم إنّها أصبحت على لسان الجميع، ولم أشأ أن أبدو مجرد مقلدٍ وضع إن أنا استخدمت هذه المفردة التي بات يبدو اليوم أنّها من بنات معجمي.

لكني لست كذلك من أولاء الذين لا يردعهم حياةٌ أو تقيه عن نخب بصمات الآخرين اللفظية. فهو فعلٌ ينم عن كسل شنيع! بل ضعف همة، بل هو مسلكٌ وضعيع! ولك أن تتصور كم من الوقت احتججتُ بعد كتابة هذا السطر حتى أسترجع ذكرى مرةً سلكت فيها ذات المذهب الذي استشطت غضبا حين تعرضت له في المكتب. حقيقةً ما احتججتُ حتى دقيقة.

حدث ذلك قبل أشهر قلائل مع صديق مقرب يُكثر استخدام صفة هائل في مراسلاته الإلكترونية بشأن شتى المسائل. فلو أرسلت له لقطة مسكوكة مميزة في مباراة بيسبول أو تصويرٍ ماعزٍ سخيّف يولول، لردّ باقتضابٍ "هائل". "أو قد أتلقى منه مقالة مرسلّة يتوجّها بقوله "قصة هائلة". "والحق يُقال إن الكلمة تليقُ به، كما لو فُصّلت لأجله. غير أنني وجدت نفسي دون وعي، استلّها منه كما لو كانت من بدعي.

والحقّ أنني لم ألتفت لتلك العثرة حتى تموز عندما اختتمت صديقة لي أخرى رُدّها على إحدى رسائلي الإلكترونية، مطريةً على استخدامي غير المألوف لهذه اللفظة المنسيّة، فقالت "راقني استخدامك لفظ هائل يا صاحبي". "وهو ما دفعني في التو إلى فتح مجلد "البريد الصادر" ليتأكد لي سريعاً انتشارها الهادر في طيات مكاتيبي. ولم تكتفِ صديقتي بهتك المحجوب، بل كان آخر دعواها في ردها المكتوب أن "يا لها من مفردة مغبرة، هلمّ نخيئها لكي تنتشرا."